

النهضة الزراعيّة والصّناعيّة

eikahd.com

obeykandi.com

—

النهضة الزراعية

إذا كانت هناك ناحية مجهولة جهلاً تاماً في سيرة الملك فؤاد كبناء فما لا ريب فيه أنها ناحية ما عمله للزراعة عامة وللزراعة خاصة

وكثيراً ما حاول الصحفيون في حياة الملك أن يفوزوا بمعلومات تمكنهم من إحاطة الناس بما يعمل به جلالتهم في هذا السبيل فلم يوفقوا إلى ذلك لأنه كان يأبى على رجاله أن يتحدثوا عن عمله

غير أنه لم يكن ليجوز لنا ونحن نكتب عن « فؤاد البناء » أن نغفل هذه الناحية المجهولة في سيرته ولا سيما أننا نعلم أنها ناحية حافلة بمجلائل الأعمال فذهبنا إلى سعادة محمد زكي الإبراشي باشا وهو الذي قضى سبع سنوات ناظراً لخاصة جلالة الملك فؤاد وسألناه أن يحدثنا في ذلك

قلنا لسعادته : نريد حديثاً مستفيضاً لأننا واثقون من أن كل شيء ستقولونه سيكون شيئاً جديداً تقولونه لأول مرة ويذاع لأول مرة

وفعلاً كانت هذه أول مرة يتكلم فيها الإبراشي باشا فاستهل حديثه بقوله :

« لما عينت ناظراً للخاصة الملكية كنت أتوقع أن يكون المغفور له الملك فؤاد مهتماً بشيء معين أكثر من اهتمامه بأشياء شتى فخرصت من اليوم الأول على اكتشاف الناحية التي تهتم أكثر من سواها فإذا بالأيام والأعوام تثبت لي الحقيقة التالية وهي أنه إذا تشرف صحافي بمقابلة الملك فؤاد خرج من حضرته وهو

يعتقد أن جلالته يكرس معظم أوقاته لشؤون الصحافة ويقيني أنه إذا اعتقد الصحفي ذلك كان معذوراً في اعتقاده لأنه يسمع من الملك ما لا يسمعه إلا من صحافيين مثله فكأنما كان يقابل زميلاً له لا ملكاً وإني أسمح لنفسني بأن أقول « زميلاً له » لأنه كان من أخص سجاياه أن يبعث في نفس زائره الثقة والطمأنينة فلا يشعر أنه في حضرة ملك

« فإذا قابله طبيب متخصص في أحد فروع الطب حادثه جلالته في أحدث نظريات فرعه فيتبادر إلى ظن الطبيب أن الملك وقف حياته على درس فرع الطب الذي تخصص هو فيه

« وإذا قابله رجل من رجال المال فدهشته لا تكون أقل من دهشة الصحفي والطبيب لأنه يسمع المليك يتكلم في الشؤون المالية كلام الخبير بها » وإذا قابله رياضي أفاء شديد الاهتمام بالرياضة كأكثر الناس ولعاً بها » وحيث إن الزراعة هي الفرع الأول في عملي كناظر للخاصة شعرت من أحاديث جلالته الأولى معي أنه كرس حياته للزراعة وخيل إليّ في بادئ الأمر أن الزراعة والعناية بشؤونها تستغرق كل اهتمامه

« ولكنني لم ألبث أن رأيت أن هذه الحالة عامة وأن ما أشعر به هو نفس شعور كل من يتشرف بمقابلته وعند ذلك أدركت السر في هذا الذي استوقف نظري واسترعى انتباهي فانه لما أقيمت على عاتقه أعباء الملك جعل هدفه غاية سامية وهي أن ينهض بمصر والنهوض بمصر لا يمكن أن يكون في ناحية واحدة فوجب إذن أن يهتم بجميع نواحي النشاط

« وإني أعتقد أن جميع الذين عاشروه وقابلوه — وكانت مقابلاته كثيرة —

يشاطرونني هذا الرأي

« وكذلك أعتقد أنه وفق توفيقاً كبيراً في توجيه نواحي النشاط في وجهة

الخير وخدمة مصر وأنه نجح نجاحاً باهراً في رفع شأن مصر حتى جعل لها مكانة سامية بين الأمم »

واستطرد الإبراشي باشا من ذلك إلى الكلام عما عمله الملك فؤاد للزراعة فقال :

« كان للناحية الزراعية مقام عظيم في نظره لأنه كان يشعر أن دم محمد علي وإبراهيم وإسماعيل يجري في عروقه
« كان يعلم حقاً أن جده الأكبر محمد علي أوجد القطن لمصر وأن أباه إسماعيل أوجد السكر فأراد هو من جهته أن يوجد شيئاً جديداً
« فماذا يكون يا ترى ؟

« ماذا يكون الفرع الذي يترك فيه أثراً ؟
« فكر في ذلك كثيراً ثم اختار الفاكهة وتربية الماشية والصناعات الزراعية »
وهنا قاطعت الإبراشي باشا مستفهماً : وهل استنتجت سعادتك ذلك استنتاجاً أم كان من أحاديث جلالته ؟
فقال : « من أحاديث جلالته قطعاً »

واستأنف سعادته كلامه فقال : « وكان مما يفخر به كذلك أن جده إبراهيم وهو ذلك البطل الذي فتح عكا ووصل إلى أسوار الآستانة لم يكن يفتخر بأنه القائد فقط بل كان يفتخر بأنه المعمر والزارع ، فغرس الزيتون يرجع الفضل فيه إلى إبراهيم

« فهذا الشعور بأنه منحدر من سلالة أولئك العظماء الذين وجهوا جهودهم إلى خدمة الإنسانية والفلاح جعله يفكر في خدمة الفلاح
« وفي اعتقادي أنه يخطئ من يظن أن شدة اهتمامه بالزراعة ترجع إلى حب

اكتناز المال والحصول عليه فقد كان له غرض أسمى من ذلك ! كان غرضه أن يكون مثلاً أعلى للفلاح فيقلده آخرون فتستفيد البلاد من ذلك »

ومضى الإبراشي باشا في حديثه فقال :

« قال لي الملك فؤاد ذات مرة : لقد أنعم الله عليّ بنعم كثيرة لا تحصى فوهب لي صحة وأولاداً ومالاً كثيراً ما كنت أحلم به وملسكاً لم يكن يخطر لي ببال وبالجملة لم تخطر ببالي نعمة إلا كانت من نعم الله عليّ ولكن من الغريب أنني حرمت من شيء بسيط جداً وهو أنني لم أستطع في حياتي كملك أن يكون لي بستان يصح أن يسمى بهذا الاسم . . . فلماذا تكون هناك بساتين في البلدان الأخرى تليق لأن تكون مثلاً يحتذى ولا يكون لي شيء منها ؟

« إذن لم يطلب البستان لأنه كان ينتظر أن يدر عليه مالا فقد كان يتحدث بنعمة الله ووفرتها

« إنما كان يطلبه ليكون مثلاً يحتذى في البلاد — إذا أمكن عمل ذلك وكان من الطبيعي أن يكون هذا الحديث أكبر حافز لي على درس الموضوع مع رجال الفن فدرسته دراسة وافية وبعد ذلك عرضت عليه نتائجها فشجعني على تنفيذ المشروع وتحقيقه

« وفعلت بدأت العمل في انشاص ومضيت فيه أربع سنوات حتى ظهرت بوادر النجاح وكنت قد أنفقت من ماله ورضائه التام خمسين ألفاً من الجنيهات . . . في تلك الصحراء الجرداء

« وكان من عادة جلالته أن يزور تفاتيشه مرة في السنة على الأقل أو مرتين فلما زار هذه الحديقة في أول سنة ولم تكن بوادر النجاح قد ظهرت بعد قال لي : إني أتمنى لك النجاح في هذا العمل الجريء في وسط الصحراء وبالطبع أنك لم

تشرع فيه إلا وأنت كبير الأمل بنجاحه فإذا قدر له النجاح وبدأت الأشجار تزهر وتثمر فهل فكرت في الرياح التي ستعصف بها في وسط هذه الصحراء فتذهب بالأزهار وتمنع نمو الثمار ؟

« قال هذا لأنني لما غرست الأشجار لم أتخذ من الاحتياطات ما يمنع عنها فعل الرياح عندما تهب وتعصف وفاتني التفكير في الضرر الذي ينشأ من ذلك ولم ينبهني له رجال الفن فأدركت في الحال أن للملاحظة الملكية أكبر قيمة وأن لا أمل في هذه الحديقة إلا إذا احطناها بما يدرأ عنها الخطر فأقمت حولها سوراً من البناء وغرست قربه وعلى امتداده أشجار الجزورينا بنظام تام وعنيت بهذه الأشجار عناية فائقة حتي إن السائر في تلك البقعة يحسب نفسه في قطعة من أوربا »

« أنجزت هذا العمل بمنتهى السرعة فلما بدأ إثمار الحديقة في السنة الرابعة وجاءت زيارة الملك لها في وقت ازدهار الأشجار وتعطر الجو بأريج أزهارها وقف جلالته يسرح الطرف في تلك الأشجار ويتأمل جمال الطبيعة وما يحيط بالبقعة التي وقف فيها من مناظر خلابة ثم سكت دقائق

« وعندئذ تذكرت ما قاله لي يوماً عن أمنيته في أن يكون له بستان

« واقتربت قليلاً منه وقلت : لعل جلاتكم قد ارتحمت إلى ما شاهدتموه

« فحمد جلالته الله وقال : لقد أتم الله علي نعمته

« ثم تفضل وشكرني فكان هذا اليوم من أسعد أيام حياتي »

وتابع الأبراشي باشا حديثه فقال :

« اتفق بعد ذلك أن كبيراً من أعضاء مجلس النواب البريطاني جاء بتوصية

من وزير مصر المفوض في لندن — وكان إذ ذاك سعادة الدكتور حافظ عفيفي

باشا — ليقابل جلالة الملك ويعرض عليه آراءه واقتراحاته في شأن إصلاح حالة

الفلاح من جهة مسكنه في الريف فبعدما قابله جلالته أرسله إليّ لكي يزور تفتيشاً من التفاتيش الملكية ويرى بنفسه المساكن التي تعد هناك للفلاحين حتى إذا عنت له ملاحظات في صدها كاشفنا بها

« وذهب هذا النائب الكبير وهو في الوقت نفسه من أثرياء الانجليز وشاهد المنازل الريفية التي كنا نبنيها للفلاحين وكذلك شاهد كيفية تقسيم الشوارع في العزب والنظافة التامة التي تراعى فيها فلما انتهى من جولته قال إنه لم يظن قط أن ملك مصر يعمل كل هذا لمصلحة الفلاح في تفتيشه ثم أعرب عن رغبته في زيارة انشاص فأجيب إلى ذلك ولما عاد إلى العاصمة جاءني وقال لي أرجو منك أن تبلغ جلالة الملك أولاً شكري على تفضله بالسماح لي بزيارة هذه التفاتيش وثانياً أنني سررت وارتحت كثيراً إلى العناية التي يبذلها لخير الفلاح وأن المساكن التي أعدت له يصح أن تكون مثلاً يحتذى وأنه ليس لي ملاحظات ما عليها وثالثاً أنني أهنته بحداثته التي أعدها كأحسن حقائق العالم طراً

« فقلت له : اسمح لي وأنت تطلب مني إبلاغ هذه الرسالة أن أوجه نظرك إلى أنه من غير المستطاع تكوين حكم كهذا وإصداره قبل أن يزور المرء جميع أنحاء المعمورة ويشاهد ما تحويه من حقائق

« فقال : لك حق ولكني أوكد لك أنني زرت حقائق في أميركا وأوروبا وآسيا وأفريقيا فلم أر أحسن من انشاص

« وكأنا أريد أن يزيدني اقتناعاً بما قاله فسلمني كتاباً بخطه لأرفعه إلى جلالة الملك وقد أثبت فيه هذا المعنى

« فلما اطلع الملك على هذا الكتاب قال إن أمثال هؤلاء العظماء يحبون إدخال السرور على نفوس من يزورون . وعد جلالته الكتاب بمجاملة من هذا النائب الكبير لا أكثر »

واستمر سعادة محدثي يحدثني عن عمل الملك فؤاد في انشاء فاسطين :
« وماذا حدث بعد ذلك ؟

« سمعت أن كثيرين من الإسرائيليين المتخصصين في البساتين نزحوا إلى فلسطين وأنهم أنشأوا فيها حدائق للمواالح وغيرها وأن هذه الحدائق تعد مفخرة وتضارع مثيلاتها في كاليفورنيا بأميركا . وذهب بعضهم إلى أنها فاقت مثيلاتها في كاليفورنيا فقلت لجلالة الملك مرة إنه إذا كانت كاليفورنيا بعيدة عني ولا أستطيع الوصول إليها فلا أقل من أن أزور فلسطين فأقتبس من حدائقها ما يصح العمل به في انشاء فاسطين عن بساتين فلسطين يشجعني على استئذان جلالتيكم في الذهاب إليها فأشاهدها بنفسي فأذن لي في ذلك وقضيت فعلا فترة من الزمان بين ربوع فلسطين وسوريا ولبنان متفقدأ حالة البساتين والمزارع وعدت بفوائد اقتبستها وطبقتها في انشاء فاسطين كما عدت من ناحية أخرى بعقيدة راسخة وهي أنه إذا كانت بساتين فلسطين تضارع بساتين كاليفورنيا كما سمعتم يقولون في فلسطين فإن انشاء فاسطين إن لم تكن أحسن حدائق العالم كما قال النائب البريطاني الكبير فإنها في مقدمة حدائق العالم قاطبة

« وحدث بعد ذلك وبعد وفاة المغفور الملك فؤاد واعتزالي منصبني في الخاصة أن الحكومة المصرية ندبت خبيراً من أميركا لمعاينة بساتين مصر وتقديم ملاحظاته عليها وعلمت أنه قدم تقريراً أثبت فيه أن بساتين انشاء فاسطين تنقسم قسمين : قسم خاص بالمواالح (يرتقال ويوسفي ولييون الخ . .) وقسم خاص بالمانجو . فالقسم الخاص بالمانجو هو أول حديقة في العالم مساحة ونوعاً . وأما القسم الخاص بالمواالح فإنه الثاني فسئل : وما هي الحديقة الأولى ؟ فقال : هي حديقة في كاليفورنيا أنشأها هو نفسه

« وكان المستر برت فيش وزير أميركا المفوض السابق في مصر يعني بالحدائق

والبساتين وله بستان كبير في ولاية فلوريدا فلما سمع عن بساتين انشاص استأذن الملك في زيارتها فأمرني جلالته بأن أرافقه في هذه الزيارة فقضيت معه يوماً كاملاً في تلك البساتين ولم يكن إنشاؤها قد تم بعد فرأى في ذلك اليوم الجزء الذي تم إنشاؤه مشمراً وشاهد أقساماً أصغر منه غير مشجرة بعد ورأى كيف تجهز الأرض في الصحراء لتتحول من صحراء إلى حديقة ورأى عدداً كبيراً جداً من العمال يعملون في هدوء ونظام وبهمة عرفت عن المصريين في الزراعة كما رأى الماشية تجهز الأرض فأعجب بهذا المنظر وبهذا النظام وبهذه العناية بالعمال وقال لي إنه وإن كان يعتني بمزارعه وبيستانه إلا أنه ليس هناك وجه للمقابلة بينها وبين بساتين الملك »

وهنا انتقل محدثي إلى الكلام عن تشجيع الملك الراحل للفنيين المصريين فقال: « هذه البساتين التي أنشأها الملك فؤاد واتفق عليها خمسين ألفاً من الجنهيات قبل أن يستفيد منها شيئاً استخدم فيها العلم والفن وكانت مدرسة أظهرت كفاءة الفنيين المصريين واستفادوا هم أنفسهم إذ غيروا كثيراً من المبادئ التي كانوا يعتقدون صحتها وطبقوا مبادئ جديدة عادت على البلاد بالخير والبركات » وكانت زيارتها مباحة لجميع شباننا المصريين وغير المصريين كذلك ليستفيدوا مما عمل فيها وليفيدوا بما يرون الإشارة به وهذا هو ما كان الملك فؤاد يقصده فتحقق قصده

« وسأسرد لكم بعض الأمثلة لتروا كيف استفاد الفن على أيدي الفنيين المصريين بعد التجارب التي جربت في انشاص

« كان الاعتقاد السائد أن البرتقال المعروف « بأبوصره » لا يصلح في الأراضي الرملية كأراضي أنشاص ولذلك كان الفنيون يشيرون بعدم غرسه في

مثل تلك المنطقة ولكن التجربة في أنشاص وملاحظة الفنيين لها أدت إلى تغيير هذا الرأي فهذا الصنف من البرتقال يوجد بإنشاص بل يوجد الآن في غيرها من المناطق المائلة إذا طعم على الليمون البنزهير

« وكان الرأي متجهاً دائماً إلى تطعيم البرتقال على شجر النرج فدلّت التجربة في أنشاص على أن التطعيم على شجر الليمون البلدي يفيد كثيراً في الأراضي الرملية

» وأثبتت التجربة في أنشاص أن العنب يوجد كثيراً في الأراضي الرملية فجاءت مؤيدة لتجربة جانا كليس ومعرزة لها

« وفي حدائق أنشاص استعملت بنجاح ، وفي مساحة واسعة ، طريقة تلقيح شجر القشطة تلقيحاً صناعياً بذكاء أحد الشبان المصريين الفنيين الذين تعلموا في أوروبا وكانت نتيجة هذه التجربة مذهشة لدرجة أن فدان القشطة الذي كانت غلته تباع بخمسة عشر جنياً أعطى بعد التلقيح الصناعي مئة وخمسة وعشرين جنياً ولم يكن هناك غلاء حرب

« وجميع هذه التجارب كان الملك فؤاد يتتبعها بنفسه ويسأل عن نتائجها ويسر سروراً عظيماً كلما نجح شاب مصري في عمل من هذه الأعمال فيشمله برعاية خاصة وقد يأمر بدعوته إلى مقابله ليناقشه وليقف منه على التفاصيل بنفسه

« ومما تقدم يتبين لكم كيف أضحت أنشاص معهداً علمياً وعملياً في آن واحد »

وانتقل زكي باشا إلى نقطة أخرى في الموضوع فقال :

« ومن الأمور الهامة التي روعيت في إنشاء بساتين أنشاص ، ولم يكن معمولاً بها في مصر من قبل ، التوفيق بين الوجهة التجارية والوجهة الزراعية

« وبيان ذلك أن الذين أنشأوا البساتين قبلاً كانوا يغرسون الأشجار حسب ورودها من المشاتل فكنت تجد الحديقة عندما تشمر مزيجاً من أشجار لا تجانس بينها ولا نظام ، ولكن في انشاص روعي أمر هام وهو الوجهة التجارية ، فقد كان الصنف يختار من أشجار معينة ، ثم تطعم الأشجار الصغيرة على الصنف الذي وقع الاختيار عليه في أما كن معينة ، فإذا وقع الاختيار على صنف معين من البرتقال طعمت عليه مساحة معينة ، وبذلك تكون الأشجار متجانسة ، وعندما تشمر يمكن أن يقدم للتاجر من كل صنف كل الكمية التي يطلبها ، وكذلك الحال في المانجو ، فإنك تجد في انشاص لكل نوع مساحة مخصصة ، فإذا أراد التاجر كمية معينة من نوع معين وجدت بسهولة
« وماذا كان غرض الملك فؤاد من هذا كله ؟

« كان له غرض جليل ، وهو أن يشق الطريق إلى الإصدار إلى الخارج ، فتكون حدائق انشاص مثلاً أعلى لهذا الاتجاه الجديد ، فيستطيع التجار المستوردون من مصر أن يجدوا حاجتهم من نوع معين بطريقة سهلة بناء على عينة بسيطة

« ترتب على ذلك ضرورة إنشاء متحف محلي ، فإذا دخلت هذا المتحف ، وجدت مثلاً نماذج للمانجو تبين كل نوع بحجمه الطبيعي ونوعه كما تبين ما يحويه من لب وسمك القشرة وحجم النواة ، فإذا أراد التاجر أن يشتري نوعاً معيناً فليس عليه إلا أن يختار النوع حتى قبل أن يشمر الشجر فيستطاع البيع على العينة الموجودة في المتحف

« وهنا أقول لكم إن الملك فؤاداً كان يروم أن يستفيد ، وأن تستفيد البلاد من كل فني في وزارة الزراعة ، أو في خارج وزارة الزراعة ، فلم نترك فنياً لم نستفد برأيه وبعلمه سواء كان ذلك من الوجهة النباتية أو الحشرية أو من الوجهة

التجارية ، ومن نعمة الله أن هذه البساتين أينعت وأثمرت في حياة جلالته ،
وبيعت ثمارها بأسعار تملو كثيراً على أسعار ثمار سائر حدائق البلاد
« ولما كانت فكرة الملك فؤاد هي تشجيع الإصدار إلى الخارج لم يكن
هناك بد من إنشاء حدائق أخرى ليزيد المحصول الأهلي على حاجة الاستهلاك
الحلي ، وفعلاً انشئت في الأوقاف الملكية حدائق في شلقان ، وكفر الحمام ،
وكوم زمران باتياي البارود ، وكلها في طليعة بساتين مصر »

وزاد محدثي على ما تقدم قوله :
« ولماذا قال ذلك الخبير الأميركي إن حديقة المانجو التي في انشاص هي
أحسن حديقة من نوعها في العالم ؟
« قال ذلك لأن الملك فؤاداً عني بجلب جميع أنواع المانجو من البلدان التي
تجود فيها علاوة على الأنواع التي كانت موجودة في مصر فأحضرنا أنواعاً متعددة
من سيلان والهند وجاوه وسومطره — وكلها أنواع ناجحة ، وتزيد في السوق
سنة بعد أخرى »

وختم الإبراشي باشا هذا الجزء من حديثه بقوله :
« وإذا كانت هذه الحدائق قد أعطت الملك فؤاداً ثمرة مالية فما لاريب
فيه أنها أفادت البلاد بإضعاف هذه الثمرة لأنها كانت مدرسة نبغ فيها كثيرون
من الشبان المصريين فأفادوا بلادهم ولا يزالون يفيدونها ، وغيّرت طريقة إنشاء
الحدائق تغييراً تاماً وشجعت على الإصدار ، ولولا ظروف الحرب الحالية لجنت
البلاد من الإصدار خيراً كثيراً

« ولم يكن الغرض الوقوف بالبساتين عند هذا الحد ، فقد كانت نية الملك فؤاد متجهة إلى جعلها أساساً تركز عليه صناعة من الصناعات الزراعية الهامة فستفيد من الليمون البلدي في بعض الصناعات ونستفيد من البرتقال واليوسفي في صنع فاكهة مسكرة وشراب

» هذه الفكرة كانت موجودة وشرع في بحثها فعلا لما اختار الله الملك فؤاداً إلى جواره

« ولكن من حسن الحظ أنها تحققت ، أو أخذت تتحقق في كلية الزراعة على يد الدكتور توفيق الحفناوي بك ، فقد كان أحد الذين يدرسونها ، ولا ريب في أنه إذا استمرت البلاد في هذا الاتجاه فإنها تجني من ذلك خيراً كثيراً »

وفي جلسة أخرى استأنف الإبراهيم باشا حديثه عما عمله الملك فؤاد للزراعة والفلاح فقال :

« أثبت التاريخ أن الخديو إسماعيل باشا وصل في اهتمامه بالزراعة ، وهو أمير ، إلى أن أصبح أكبر مزارع في مصر كما قال قنصل أميركا في القاهرة في تقرير كتبه إلى حكومته لما تولى إسماعيل الحكم

» فلا غرابة إذن أن يكون بين أنجال هذا العاهل العظيم مثل السلطان حسين وقد لقب بأبي الفلاح

« والواقع أن الملك فؤاد كان صديق الفلاح وحامي الفلاح . حدثني عن نفسه أنه لما عاد من أوروبا ، وهو شاب ، عني بالزراعة عناية خاصة في تفتيش كان موقوفاً عليه منذ طفولته ، وظل هذا التفتيش محبباً إلى نفسه حتى آخر حياته

» كان يعرف هذا التفتيش حوضاً حوضاً وقطعة قطعة ، وكان يعرف كثيراً من سكانه وعمدته ومشايخه معرفة شخصية ، وكان يحادثهم في زيارته السنوية له حديث من عاشرهم زماناً طويلاً

« قال لي جلالته إنه كان كثير التردد على هذا التفتيش وإنه كان يشرف على زراعته بنفسه حتى أنه كان يقف في الغيط في شهري مايو ويونيو يلاحظ الفلاحين بشخصه وهم يخدمون القطن وقد بنى له داراً جميلة في هذا التفتيش ليقم فيها من وقت إلى آخر وأنشأ بجوار هذه الدار حديقة غرس فيها أنواعاً كثيرة من الفاكهة

« ولاحظ يومئذ — أي وهو أمير — أن حالة الفلاحين غير صالحة من جهة السكن والمعيشة والظروف الاجتماعية فكان ماء الشرب أول ما اهتم به فأوجد لهم طلمبة ارتوازية ليشرّبوا من مائها ولا يزال رجال التفتيش يشربون منها إلى الآن وماؤها عذب ومن خير ما يشرب الناس من الآبار الارتوازية

« وكان يبر بالفلاحين في الأعياد والمواسم فيوزع عليهم الكساوى واللحم والحلوى وغير ذلك

« فلما أقيمت على عاتقه أعباء الملك ظل هذا التفتيش محبباً إلى نفسه وزادت عنايته به فأنشأ فيه من المساكن للفلاحين ومن المخازن والاصطبلات ما يصح أن يكون نموذجاً يحتذى لافي مصر وحدها بل في أرقى بلدان العالم كذلك ثم عني بإصلاح أراضيه وظل يتتبع مراحل هذا الإصلاح بنفسه إلى أن وصل هذا التفتيش إلى درجة تجعله في المرتبة الأولى بين التفتيش الزراعي في البلاد

« وعنى بمحصولاته حتى أنتج في إحدى السنين ما أدهش رجال الفن الزراعيين في وزارة الزراعة فأنتج فدان القطن بمتوسط $8\frac{1}{4}$ قنطار من صنف جيزه ٧ والقمح ١١ أردباً من الصنف الهندي والبقول ١٢ أردباً والأرز — وقد زرع في بعض الأطنان — $3\frac{1}{2}$ ضريبية والذرة ١٨ أردباً — وهي أرقام تعد مدهشة إذا اجتمعت لتفتيش في سنة واحدة ولم نصل إلى هذه النتيجة إلا بسبب العناية بالري والصرف وتنظيم دورة ثلاثية نفذت بدقة ومراعاة نظافة الأرض من

الحشائش الضارة ومقاومة الحشرات واستخدام أحدث الطرق الفنية
« ولم تقف عناية الملك فؤاد عند هذا الحد بل وصل إلى إنتاج أحسن قطن
في مصر لا في هذا التفتيش وحده بل في سائر تفتيشه كذلك وفي أطيان الأوقاف
الخصوصية الملكية

« وكان المعروف في البلاد وعند التجار أن قطن الدومين في مصلحة الأملاك
هو أحسن قطن مصري وكان من المعروف كذلك أن المغفور له الأمير كمال الدين
حسين ينتج أحسن قطن في مصر فاستطاع الملك فؤاد في آخر سني حياته أن يوفق
بعنايته الشخصية المتواصلة إلى إنتاج أنواع من القطن هي بلا شك أحسن ما تنتجه
أرض مصر من القطن وسلم التجار والمشتغلون بانتخاب القطن وإصداره أن
الملك فؤاداً ينتج سيد أقطان العالم

« وكان من عادتي أن أبيع قطن الملك في عدة جلسات علنية أراسها بنفسي ولم
يكن التجار الذين كانوا يحضرون في بادئ الأمر من تجار الطبقة الأولى في القطن
ولكن عناية جلالاته بهذه الزراعة وتتبعه لها سنة بعد أخرى والاستئناس بآراء
الفنيين والعمل بنصائحهم — كل ذلك أدى إلى ازدياد عدد الذين يحضرون
المزاد من أرقى طبقات التجار وكان الأجانب منهم يحضرون مع المصريين
ويشتركون في المزاد اشتراكاً فعلياً وبعد ما كان الأجانب في أول الأمر يرسلون
مندوبين عنهم صاروا يحضرون بأنفسهم ويشتركون في المزاد بأشخاصهم احتراماً
لهذه المزادات وتقديراً للجهود التي كانت تبذل لتحسين هذه المحصولات

« وكان الملك يرتاح ارتياحاً عظيماً لا إلى الأثمان العالية التي كنا نحصل
عليها والتي لم يكن لها مثيل بل إلى ما كنت أنقله إليه عما يتحدث به التجار
من أن قطنه يحتل المكان الأول بين أقطان مصر كلها

« وحدث مرة أن حضر المسيو الكسندر بيناكي وهو من كبار تجار القطن

واشترك في المزاد وأعلن أنه كان يشتري دائماً قطن المغفور له الأمير كمال الدين حسين وكان يعده أحسن أقطان العالم فما توفي سموه ظن أنه لن يجد لهذا القطن بديلاً ولكنه لم يلبث أن شعر بدعشة عظيمة لأن بعض أقطان الملك فؤاد فاقت أقطان الأمير كمال الدين حسين ، وإظهاراً للإعجاب به أعلن في الجلسة أنه يزيد في ثمن هذا القطن خمسة ريالات على أعلى ثمن يصل إليه القنطار ونفذ ذلك فعلاً « ولم يكن حضور جلسات المزاد مظهرًا من مظاهر المجاملة فان التجار لا يضيعون وقتهم في مجاملات ولكنهم كانوا يحضرون حرصاً على عدم إفلات هذه الأقطان من أيديهم ولكي يفوزوا بها إذا استطاعوا ذلك

« ولم يكن هم الملك فؤاد مقتصرًا على إبلاغ القطن وحده المرتبة الأولى بل كان تفكيره متجهًا إلى تحسين أنواع جميع المحصولات الأخرى فكان هناك في تفتيش الفاروقية نوع من القمح الهندي إذا طحن أعطى ٨٥٪ دقيقاً فضلاً عن أنه يشتمل على نسبة عالية من « الجلوتين » ومن المعروف أن كندا مثلاً وهي من أحسن البلدان التي تنتج القمح لا تزيد فيها النسبة التجارية العادية على ٨٠٪ ولم يكن من المتيسر الحصول على نسبة عالية تصل إلى ٨٥٪ إلا في بعض مقاطعات روسيا ورومانيا

« أما فيما يتعلق بالشعير فقد عني بنوع استنبطه الفنيون بوزارة الزراعة من أنواع الشعير البلدي فأكثرنا من زراعته في أدفينا وغيرها . ودلت التجربة على أنه صنف يصلح لصنع البيرة ويباع في الأسواق بأثمان أعلى من أثمان أصناف الشعير الأخرى ولا يزال هذا الصنف ينتشر باطراد في البلاد ويستخدم في صنع البيرة . وانهزت فرصة وجودي في أوروبا في سنة ١٩٣٥ فزرت بعض مصانع البيرة وعرضت عليهم هذا الصنف من الشعير فأكد لي الفنيون في تلك المصانع أنهم يستطيعون استخدامه في صنع البيرة بدلاً من أن يستوردوه من تشكوسلوفاكيا وغيرها

« أما القول فكان له من الخاصة عناية كبيرة إذ كننا ندخل على صنفه تحسيناً يطرده سنة بعد سنة لنصل إلى تكبير حبوبه وجعلها متماثلة في اللون والشكل » هذا فيما يتعلق بالمحصولات الرئيسية . وفيما يتعلق بالقصب مثلاً عنت الخاصة بإرشاد الملك بزراعته عناية فائقة واسترشدت بتجارب المحربين في زراعته وبعلم فني أميركي كبير خدم الحكومة المصرية وساعد شركة السكر زماناً طويلاً فحصلنا بذلك على نتائج تماثل ما وصل إليه سائر التفاتيش والزراعات المعنية بالقصب سواء كان ذلك من حيث كمية المحصول في الغرس والخلفة أو من حيث الخلاوة ونسبتها العالية »

« وكان جلالته يعنى بكل محصول مهما يبدو لأول وهلة أنه غير كبير القدر فكنا نسعى لتحسينه والاستفادة منه لأقصى درجة »

وهنا أخذ سعادة محدثي يتكلم عما صنعه الملك فؤاد للفلاح بوجه خاص فقال : « ولم تكن فكرة الملك فؤاد متجهة إلى الكسب عن طريق الزراعة وإهمال شأن الفلاحين بل كانت له غاية اجتماعية سامية بدأ يحققها وهو أمير بتحسين حالة الفلاح كما تقدم ولكن لما تبوأ العرش واتسع الأفق أمامه رأى أن يدخل نظاماً اجتماعياً جديداً كان يؤمل من أعماق قلبه أن يكون نواة صالحة لإصلاح اجتماعي شامل يتحقق تدريجاً مع الأيام فقد كان جلالته لا يؤمن بالطفرة بل يرى أن كل إصلاح يتم بالتدريج يكون أثبت أساساً وأكثر رسوخاً وأحب إلى النفوس من غيره علاوة على أنه يتيح للقائمين به فرصة لإصلاح الأخطاء التي تكشف عنها التجربة »

« فماذا عمل ؟ »

« بدأ بتحسين مساكن الفلاح فعمم هذا النظام في جميع التفاتيش التي يملكها »

وأوجد من المساكن ما بني على أساس صحي سليم متين وجعل للمشاة زرائب خاصة غير متصلة بالمساكن وروعي في البناء توفر التهوية الكافية ودخول الشمس إلى البيوت واتساع الطرق حتى ليخيل إلى المرء وهو يسير في عزبة من العزب الملكية أنه في بقعة من مدينة راقية

« وسبق أن أشرت إلى أن كبيراً من كبار الانجليز — وهو النائب بوسن — حضر إلى مصر خصيصاً ليعرض على الملك بعض آرائه في إصلاح مساكن الريف فلما زار انشاص ورأى المساكن التي أنشأها الملك فؤاد فيها قال إنه ليست له ملاحظات يبدونها غير إعجابه بكل ما رأى

« قال ذلك الكبير الانجليزي ما قاله في وقت كانت تلك المساكن قد بلغت فيه حالة مرضية ولكني لا أدري ماذا كان يقول لو زار التفاتيش بعد سنتين أو ثلاث سنوات لأنه كان يرى حتماً ما هو أعجب مما رآه في المرة الأولى بمراحل « وبيان ذلك أنني زرت مرة تفتيشاً لأحد السويسريين في الدقهلية وكان معروفاً عن هذا الرجل — رحمه الله — أنه من الذين يحبون المصريين ويعملون لما فيه خيرهم فأعجبني جداً عند زيارتي لتفتيشه أنه لا يكتفي بإنشاء مساكن حسنة للفلاحين بل كان يبني بيوتهم من طابقين فلما عدت من زيارتي وأفضيت إلى الملك بما رأيت سر كثيراً وأعجب بعمل هذا الأجنبي فملت منزله عنده وأكرمه حتى أنه لما توفي أوفد مندوباً للاشتراك في جنازته والناس لا يعلمون سر هذا العطف

« ولما انتهيت من سرد ما شاهدته في عزبة ذلك الأجنبي قال جلالتة : أيجمل بي وأنا ملك مصر أن أكون أقل عناية بالفلاح المصري من هذا الرجل ؟ وأمرني جلالتة في تلك اللحظة بأن أغير خطة بناء المساكن وأن أجعل دائماً

بيت الفلاح من طابقين فيتمتع بالسكن في الطابق العلوي على الأقل في فصل الصيف

« ثم أمر بأن يكون في كل عزبة من عزبه مصلى وهو جامع صغير ومكان للضيافة ودكان تباع فيه حاجات أهل العزبة وأن يوجد ماء صالح للشرب وأحواض لشرب الماشية يصل إليها الماء نظيفاً وأن تكون الشوارع دائماً في غاية من النظافة وأن تفرس على جوانبها الأشجار

« وزاد في عنايته فأمرني بأن أقرر مبدأ صرف مكافآت للفلاحين الذين يعنون بنظافة بيوتهم وأن تؤاف لتوزيع هذه المكافآت لجنة فيها طبيب فتنفذ مرة في الأسبوع وفي أوقات غير معروفة نظافة المساكن وتضع لها درجات ثم تجمع هذه الدرجات في آخر السنة وتعين المكافآت من ثلاث درجات فالذين يفوزون بالدرجة الأولى يمنحون اثنا عشر جنيهاً والذين يفوزون بالدرجة الثانية يعطون ثمانية جنيهاً والذين يفوزون بالدرجة الثالثة يصرف لهم ستة جنيهاً . وكان لكل فلاح الحق في أن ينال مكافأة طبقاً لدرجة نظافة مسكنه وكنت أوزع هذه المكافآت في حفل محلي يحضره أهل التفتيش فتبسط لهم المبادئ والقواعد التي بنيت عليها المكافأة ثم توزع المكافآت على الفائزين وكانت تزداد كل سنة على ما كانت في السنة التي قبلها

« وكان الملك فؤاد يعنى بالوقوف على مدى التقدم الذي تتقدمه العزب من هذه الناحية ولاحظ مرة وهو آسف أن واحداً من الأهلين لم ينل درجة ما في السنة بطولها فقال إن مثل هذا الشخص جرثومة يجب استئصالها لأن النظافة والعناية يجب أن تكونا في مقدمة ما يعنى به أصحاب الأطيان

« وأمر جلالته بأن يكون في كل تفتيش مستوصف للعناية بصحة الأهلين ومعالجة مرضاهم وأنشأ في أكبر تفتيشه وهو تفتيش ادفيينا مستشفى كاملاً يحتوي

على قسم للجراحة وآخر للطب الباطني وقسم ثالث للنساء والولادة وقسم رابع للرمذ وكان الأطباء يعملون عمليات كبيرة في هذا المستشفى بنجاح فاذا بلغ أمرها جلالته سر به سروراً عظيماً

« وأمر جلالته كذلك بأن يكون العلاج مجاناً وبأن تصرف الأدوية مجاناً كذلك

« وكان تفتيش أدفينا مباءة لبعوض الملاريا ومرتاً خصباً لهذه الحمى الخبيثة فصرف جلالته همه في القضاء عليها غير مبال بالأموال الطائلة التي كان ينفقها في هذا السبيل من إرسال كميات عظيمة من الكينين إلى تخفيف المستنقعات وتحقيق غايته قبل وفاته فإن اهتمامه المستمر كان الحافز إلى ردم جميع المستنقعات التي كانت في هذا التفتيش وتبلغ مساحته ١٦ ألف فدان فأضحت الإصابات بالملاريا في أدفينا نادرة بعد ما كانت وباء متوطناً

« وكان في كل تفتيش مدرسة أولية لتعليم أبناء الفلاحين
« ونشأ من هذه العناية بصحة الفلاحين وعقولهم أنهم أصبحوا أقدر على خدمة الأرض وفلاحتها فكافأه الله على الخير الذي أسداه إليهم بزيادة الغلة وزيادة تفوق كل ما كان يؤمله وبعد ما كان السكن في أدفينا كريهاً وغير محبوب إلى النفس صار الفلاحون يعدونه نعمة على ساكنيه فأقبلوا عليه من كل صوب يلتمسون الرزق فيه ويلحون في قبول طلباتهم لا مني وحدي بل من جميع رجال التفتيش وكان الملك كلما درى بذلك يوصيني بأن لا أذخر وسعاً في قبولهم وفي العمل لما فيه راحتهم وكانت ألامي مشكلة المباني ولم تكن مشكلة هينة فقد كان جلالته يريد لها مباني جميلة ذات طابقين كما قدمت فكان يحثني على بذل ما فوق الطاقة لزيادة عدد هذه المساكن لإراحة الفلاحين الراغبين في العمل في تفتيشه
« ولكي أصور لك صورة صغيرة من ذلك المجهود العظيم أذكر أنه لما توليت

العمل كان عدد سكان تفتيش أدفينا ثلاثة آلاف تفتك فيهم الأمراض ولا سيما
الملاريا فغادرت التفتيش وعدد سكانه ٧٥٠٠ نسمة

« وزار تفتيش أدفينا رجل روسي ولما أتم زيارته قال لي : ما كنت أعتقد
قط إن ملك مصر يعتني برعيته وبسا كني تفتيشه كل هذه العناية أو بعضها
ولو فعل قياصرة الروس بعض ذلك لما نشأت البلشفية في روسيا

« ولم تكن عناية الملك فؤاد بسا كني تفتيشه ومزارعه تنتهي عند الاهتمام
بصحتهم بل كان يساعدهم على اقتناء المواشي الكافية وأن تكون في كل بيت
جاموسة تدر اللبن لأهله ولم يكن هناك بيت واحد ليست فيه جاموسة أو بقرة
وقد كوفى على هذا الخير بما نوهت به قبلاً أي بزيادة قدرة الفلاحين على خدمة
الأرض وفلاحتها فزادت غلتها »

وهنا حدثنا الإبراشي باشا عن أمر ظل مجهولاً جهلاً تماماً في حياة الملك فؤاد
ولم يعرفه سوى عدد يسير جداً من الناس . قال :

« وكان الملك فؤاد بعد تجربته الطويلة يرى أن نظام الإيجار بالنقد غير صالح
تماماً وأنه لا يقوى على مواجهة الأزمات فأبدله بنظام يقوم على اشتراك المستأجر
مع المالك في الغلة ووصل في كرمه إلى أنه كان ينزل لمزارعيه عن نصف غلة كل
محصول وطبق هذا النظام على أكبر تفتيشه وهو تفتيش أدفينا فأفضى إلى نتيجة
مرضية جداً وكانت نية جلالته متجهة إلى تعميمه في سائر تفتيشه

« ومن أغرب ما أظهرته هذه التجربة أنه لما شعر الفلاح بأن نصف ما تنتجه
الأرض أصبح يؤول إليه واصل العمل ليلاً ونهاراً وبذل مجهوداً كبيراً فكانت
النتيجة باهرة وعادت بالخير على الفلاح وعلى الأرض معاً »

ومضى سعادة محدثنا في التكلم عن بر الملك فؤاد بالفلاح فقال :
« ولم يكن حذبه على الفلاح مقتصرأ على ما تقدم بل كان من أحب الأمور
إليه أن يدخل السرور على قلوب مزارعيه بطرق شتى وكان يأمرني بمشاركتهم في
أفراحهم السنوية فتقام الموالد وتذبح الذبائح وإذا كان المولد ذا مقام خاص في
نفوسهم شهدته بنفسي

« وقد قلت قبلا أنه كان من عادة جلالته أن يزور تفاتيشه مرة في السنة على
الأقل فأقول هنا أن هذه الزيارة كانت فرصة يجتمع فيها بجميع المسؤولين عن
أعمال التفاتيش فيجادلهم ويناقشهم ويبدي لهم ما يعن له من ملاحظات ثم
يضع السياسة التي يجب اتباعها في السنة أو في السنوات التالية فيكون هذا اليوم
يوماً مشهوداً ذا نتائج باهرة

« وكان يطيب له في ذلك اليوم أن ينسى أنه ملك ويكره أن يناديه
الفلاحون بلقب الملك وأن يهتفوا له لرغبته في أن يشعر بأنه فرد من الأفراد
يعيش عيشة بسيطة في وسط موظفيه وفلاحيه متفقداً حالتهم باحثاً معهم كل
ما يعود عليهم بالخير وكذلك كانت الزيارة فرصة لمنح الموظفين مكافآت وعلاوات
وفي بعض الأحيان كان ينعم عليهم برتب ونياشين مكافأة لهم على إخلاصهم من
جهة وتقديراً لخدماتهم للفلاحين من جهة أخرى »

وقال الإبراشي باشا بعد ذلك :

« وبعد ما أدرك الملك فؤاد هذا النجاح العظيم في مشروعاته الزراعية فكر
في أن يخدم مصر من ناحية أخرى لم تكن محل عناية كبيرة من كثيرين فوجه
سياسته الزراعية إلى تربية الماشية لأغراض شتى أولها تحسين اللبن وثانيها زيادة

اللحم وثالثها رفع مستوى مواشي الخدمة في الغيظ وعني كذلك بتشجيع تربية الأغنام المصرية بعد ما فقدت كثيراً من مزاياها

« ونجح جلالته في ذلك بعد ما استورد من أوروبا من أنواع الماشية شيئاً كثيراً فاستورد من هولندا « البقر الفريزيان » ومن إنجلترا « الشورت هورن » ومن فرنسا « الشاروايه » ولم يهمل لحظة واحدة العناية بالمواشي المصرية وأشهرها الفصيلة البقرية في المنوفية والبقرة الدمياطية والجاموس أينما وجد حتى أنه فكر في استيراد جاموس من العراق ومن جاوه بل من الصين كذلك وأوجد لهذه المواشي من الزرائب ما لا مثيل له في مصر بتاتاً

« وعلم جلالته أن البابا أنشأ للبقر زريبة على أحدث الطرق الفنية فبزت جميع الزرائب التي من نوعها في أوروبا فلم يسترح جلالته إلا بعد ما جلب رسوم هذه الزريبة وأمر بإنشاء زريبة على مثالها في أدينا بعد إدخال تحسينات ربي أدخلها عليها وأنشأنا إلى جنب الزريبة مكوراً للسباح يدار بطريقة ميكانيكية وينقل منه السباح إلى الأطيان بطرق تسر خاطر من يشاهدها

« وزرت كثيراً من مزارع البلجيك وهولندا وفرنسا والدنمرك فلم أرها شيئاً يضارع ذلك » ♦

وعاد سعادة محدثي إلى التنويه بتشجيع الملك فؤاد للفنيين المصريين فقال :
« وكان من أكبر ما يسره أن يعلم أن الفنيين المصريين يجدون في تفاتيحه كل ترحيب وكل تشجيع فالفضل في إنشاء الإصطبلات يرجع إلى اثنين من الشبان المصريين وضعوا رسومها بعد ما درسوها معي شهراً كاملاً وإنك لتدهش إذا علمت أنه بعد ما درست تلك الرسوم شهراً كاملاً مع ذينك الشابين اللذين تعلمتا تعليماً فنياً راقياً في أوروبا عرضت نتيجة البحث على جلالته فأصغى إليّ بانتباه شديد

ما يقرب من ساعة لم يقاطعني في أثنائها فلما انتهيت من الكلام قال لي إنه يسره أن يكون بين الفنيين المصريين من حذق هذا العمل وأن لا مانع عنده من تنفيذ مشروعهما بأكثر ما يقتضيه تنفيذه من مال ولكنه طلب إلي أن أرجئ الشروع في ذلك إلى أن اطلع على بحث في هذا الموضوع أعده بعض الفنيين في فرنسا ونشر في مجلة زراعية ثم تفضل وأحضر هذه المجلة من مكتبه الخاص وأعطاني أياها وأوصاني بقراءة البحث فدهشت إذ وجدت أنه كان قد أشر على المقالة بقلمه كمن كان يريد أن ينهني إليها ولم يكن يدري أنني منهمك بهذا البحث ولما اطلعت على البحث الذي تضمنته تلك المقالة سرني أن ألاحظ أن المبادئ التي أشار إليها العلماء الفرنسيون هي نفس المبادئ التي أشار بها الشبان المصريان فلما رفعت إليه هذه النتيجة قال لي : « إني عرفت ذلك مما عرضته علي في المرة الأولى فالآن يمكنكم أن تنفذوا المشروع » فنفذناه على أحسن حال وكان ارتياحه كبيراً لما زار التفتيش ورأى ثمرة البحث مع هذين الشابين « لقد كان رحمه الله كثير الاطلاع في جميع النواحي ومنها الناحية الزراعية فكان كلما وقف على شيء هام نهني إليه بل كان يتفضل أحياناً بشراء بعض الكتب ويعطيني إياها لأطلع على ما جاء فيها فتزداد بذلك معلوماتي »

وقص علي الأبراشي باشا بعد ذلك قصة رائعة تتصل اتصالاً وثيقاً بعمل الملك فؤاد الزراعي وتصف مدى احترامه للعلم وشدة تقديره لرجاله . قال :

« لما اشتهر في الأوساط الأجنبية أن الملك فؤاداً يعني بالزراعة تلك العناية العظيمة ولا يغفل فرعاً ما من الفروع المتصلة بها كاشفه بعض أفاضلهم بأن الأكاديمية الفرنسية الزراعية ترى أنه مما يشرفها أن يكون جلالته عضواً فيها فأجابهم بقوله أن مما يشرفه هو أن يكون عضواً فيها كما كان له من قبل الشرف بأن

يكون عضواً في الأكاديمية الفرنسية ولكنه يريد أن يعرف على أي أساس يختارونه عضواً وما هو الفرع الذي سيكون عضواً فيه لأنه يعلم أن في الأكاديمية الفرنسية للزراعة فروعاً متعددة فأجيب بأن المكان الخالي هو عن الغابات فقال وما شأني بالغابات وبلادتي فقيرة في الأشجار ونحن لم نبذل بعد مجهوداً في هذا السبيل ؛ واعتذر بلطف عن عدم قبول العضوية

« و بعد أشهر عاد إليهم رسولهم يعرض عليه العضوية في فرع تربية الماشية فأجاب بأنه شاكر للأكاديمية فضلها في التفكير فيه دائماً ولكنه يرى أنه غير جدير بهذه العضوية لأنه لا يزال مبتدئاً في تربية الماشية وأنه سيوالي حتماً العناية بهذا الفرع بكل ما أوتي من قوة أما الآن فإنه لم يبلغ بعد النتيجة التي تجيز له أن يكون عضواً في هيئة علمية عالية كهيئة الأكاديمية الزراعية
« وكرر اعتذاره في هذه المرة كذلك »

« وكأنا كان اعتذاره الثاني حافزاً للأكاديمية على التثبيت بعضوية هذا الرجل العظيم الذي يعلم حق العلم مقدار الشرف الذي يصيب المرء من عضويته في هيئة علمية عالية القدر كهذه ومع ذلك يبدي من أسباب الاعتذار ما ترتاح إليه النفس الكريمة — فانتهر رجالها فرصة خلو عضوية ثالثة في فرع إصلاح الأراضي والعناية بشؤون الفلاح وألحوا عليه في قبولها قائلين إن ما وصل إلى علم الأكاديمية عن عنايته بمزارعه وتفتيشه وإصلاح الأراضي يبعثهم على الرجاء بأنه سيقبل عرضهم هذه المرة فكان جوابه : إنه لشرف كبير أن أكون محل عناية هذه الأكاديمية إلى هذا الحد والآن لا أستطيع الاعتذار ولكنني أريد أن أكون مطمئناً أمام نفسي إلى أنني أستحق هذه العضوية ولذلك أشرت أن تنقذ الأكاديمية فنياً يزور تفتيشي ويقدم لها عنها تقريراً من الناحية الفنية

فإذا رأيت بعد اطلاعها عليه أنني جدير بأن أكون عضواً وقررت ذلك قبلت قرارها بارتياح

« وأكبرت الأكاديمية هذا الشعور السامي وندبت فعلاً الميسو الجذور — وكان كبير الخبراء في البنك العقاري — ليزور التفاتيش الملكية ويضع عن كل تفاتيش منها تقريراً فزارها واحداً بعد واحد ولما عرضت هذه التقارير على الأكاديمية قررت بالإجماع انتخاب الملك فؤاد عضواً عن الفرع الذي رشح له وسرّحه الله بذلك وقال الآن أقبل هذه العضوية مرتاحاً بعد ما قرروا أنني أستحقها

« ودعا جلالاته بعد ذلك عضوين من زملائه أعضاء الأكاديمية إلى مصر على نفقته ليريا بنفسيهما ما وصفه الميسو الجذور وصفاً موجزاً فقبلت الأكاديمية الدعوة بالترحيب والشكروا وفدت إلى مضرائين من أعضائها فلم يتشرفا لسوء الحظ بمقابلة جلالاته لمرضه فقابلتهما بأمر منه وأبلغتهما رغبته في أن يوافياه بما قد يبدو لهما من ملاحظات على التفاتيش بعد زيارتهما لها ، ثم رافقتهما في زيارتهما كلها فرأيا نتيجة مجهوده المتواصل وثمره سهره على خدمة الزراعة في مصر وسافرا بعد ما رغبا إلى في أن أقدم الملك شكرهما وأن أنقل إليهما شاهداً في تفاتيشه ما لم يكن يخطر لهما ببال وقال أحدهما وهو الميسو هيتيه إنه يجب على فرنسا أن تحتذي في الجزائر وتونس مثال الملك فؤاد في مصر

« ولما وصلا إلى فرنسا قدما للأكاديمية تقريراً نفيساً عن زيارتهما ومشاهدتهما وقد تلى هذا التقرير في جلسة دعي إليها وزير مصر المفوض في فرنسا »

وهنا جاء ذكر الظروف التي أنشئ فيها المتحف الزراعي فقال سعادته :

« حدث مرة أن سألتني جلالته هل زرت بودابست فقلت لم يكن لي هذا الحظ يا مولاي فقد سافرت إلى أوربا واسكني لم أر منها سوى فرنسا وسويسرا » فقال جلالته إن الجرجنت بإنشاء متحف زراعي لم أر له مثيلا في أوربا وسأعطيك كتيباً صغيراً عن هذا المتحف لتقرأه ثم تكلمني في شأنه » ولما فرغت من قراءة الكتيب أخبرت جلالته بذلك وقلت إنني معجب بكيفية تنظيم هذا المتحف فقال ألا تظن أن مصر وهي بلد زراعي في حاجة إلى متحف مثله ؟

« فقلت بلا شك يا مولاي ولكن الأمر يقتضي مجهوداً شاقاً » فقال جلالته : ولم لا يبذل . فلنبداً باقناع وزير الزراعة فإذا اقتنع سعينا لإقناع وزير المالية ورئيس الحكومة فإذا اقتنع الجميع بفوائد المشروع خطونا خطوة التنفيذ

« وظل جلالته يرعى هذه الفكرة إلى أن قبلتها الحكومة واختار بنفسه المكان الذي أعد للمتحف وهو سراي المغفور لها الأميرة فاطمة ثم طلب من الحكومة أن تدعو فنياً من الجرجنت ليؤسس هذا المتحف وينشئه على غرار متحف بودابست

« ولما بدأ العمل كان يراقب سيره بنفسه ويوفدني من وقت إلى آخر لأطلع على مدى تقدم مراحل وأهدى إليه من تفتيشه ما كان نواة صالحة له وما زال يتعهده بعنايته حتى تم في أواخر عهده وافتتحه جلالته الملك فاروق

« وإن من يزور هذا المتحف زيارة مدقق ينبغي الفائدة الزراعية من زيارة كهذه يخرج ظافراً بمعلومات فنية ذات قيمة كبيرة . وإن المرء ليعجب بعد ما تم هذا العمل العظيم من المجهود الذي بذل لجمع معلومات زراعية فنية وما يتصل بذلك من صناعات زراعية لا حصر لها في صعيد واحد ، وقد شاء الملك فؤاد أن يكمل

فائدة هذا المتحف من الوجهة العلمية البحتة فأنشأ فيه قسماً خاصاً بالزراعة في أيام
الفراعنة وأوجد في هذا القسم من محصولات مصر الزراعية وحيواناتها ونباتاتها
وطريقة معيشة أهلها ما هو محل إكبار وإعجاب كل من زار هذا القسم التاريخي
في متحف فؤاد الزراعي »

وقال زكي باشا بعد ذلك :

« والواقع أن نظرة الملك فؤاد إلى الزراعة في مصر كانت قائمة على الرغبة
الصادقة في إعلاء شأنها وإسعاد أهلها وكان في سبيل ذلك لا يبالي بما ينفق
من مال

» وإني أشعر بأنه ليس بين المصريين إلا قليلون جداً يعرفون أن جلالة
أنفق من ماله ما يربى على مليون جنيه في تفتيش واحد وهو تفتيش ادفيينا
أكبر تفتيشه

« أنفق هذا المبلغ العظيم في شرائه وإصلاحه وفي كل ما يعود بالخير على
ساكنيه ولم يكن ينفق كل ريع هذا التفتيش وحده بل كان يضيف إليه كل
سنة مالا كثيراً من جيبه ويشار على هذه السياسة وهو يعلم أنه لا يدخل خزينته
قرش واحد من هذا التفتيش مؤملاً أنه سيأتي اليوم الذي يستفيد شخصياً مما
أنفقه ولكن كان هناك شيء واحد لم يغفل عنه وهو أنه لا يمر يوم من دون أن
تغدق فيه حسناته على ساكني هذا التفتيش والأراضي المجاورة له وكانت النتائج
السنوية تشجعه كثيراً على المضي في هذا الطريق الصالح واضعاً دائماً مصلحة
ساكني التفتيش وجيرانه فوق كل اعتبار

« وقلت لجلالته مرة إن إصلاح هذا التفتيش المترامي الأطراف غير ممكن
ما دامت حالة الري فيه على غير ما يرام فان هذا التفتيش كان يروى من ترعة

الرشيدية وهي آخر ترعة في شمال مديرية البحيرة ووصول الماء إليها صعب شاق وفي فصل الصيف يجد رجال الري مشقة وعنتاً في إيصال الماء إليها فقلت لجلالته كيف يمكن مع هذا إصلاح ١٦ ألف فدان وعرضت عليه أن أنفق من ماله نحو خمسين ألف جنيه لأنشئ محطات ري على النيل مباشرة وأحفر ترعة طولها خمسة عشر كيلومتراً على نفقته لنسقي التفتيش بماء نحصل عليه بآلات الري من النيل عندما يصبح النهر في تلك المنطقة منقطعاً عن القناطر الخيرية فلا تصل إليه من الماء الصيفي قطرة واحدة ويتحول إلى بركة يتجمع فيها ماء الرش وهو ماء وإن احتوى على بعض الملوحة يصلح تماماً لري الأطنان ويمكن أن تروى منه أطنان التفتيش وبهذه الكيفية يترك ماء الترعة الرشيدية للجيران فيكون من وراء ذلك رحمة بالجيران وإصلاح للتفتيش وإراحة لموظفي الري من غير إضرار بأحد فان الماء الذي سيروى منه التفتيش صيفاً هو ماء رشح يلقي في البحر المتوسط عندما يرد ماء الفيضان ويستعان به أحياناً في تغذية ترعة الحمودية عندما يشح الماء وما يؤخذ للتفتيش أديننا بالآلات لا يؤثر في ترعة الحمودية مطلقاً

« بسطت لجلالته ذلك بعد ما درست الموضوع درساً وافياً فأقرني رحمه الله على فكريتي وقال إذا استطعت أن تقنع رجال الري بذلك فافعل » وكنت واثقاً من أن رجال الري يستقبلون المشروع أحسن استقبال ويعدونه نعمة وبركة عليهم لأنه فضلاً عن أنه لا يكلف الحكومة شيئاً سيمكنهم من مد جيران الملك بماء ترعة الرشيدية ولم يجب ظني فاني لما عرضت المشروع على مفتش الري المختص — وكان انجليزياً — قابله بارتياح شديد مشروطاً أن لا ننتفع بماء الترعة الرشيدية صيفاً وأن تسد الفتحات التي للتفتيش على هذه الترعة فقلت له إنني لما فكرت في المشروع بنيته على هذا الأساس أي على أساس سد الفتحات التي على ترعة الرشيدية وزدت على ذلك قولي إنني سأسد هذه الفتحات

على نفقة الملك وسأسدها بالأسمت المسلح حتى يكون واثقاً من أن النية خالصة فأعطاني الترخيص في خلال سبعة أيام أتم فيها بحوثه ، وكانت هذه خطة الخاصة الملكية أي أنها تخضع كالأفراد في جميع أعمالها لأحكام القوانين واللوائح بكل تدقيق ، ونفذت المشروع فعلاً فكلف ما يربي قليلاً على خمسة وأربعين ألف جنيه أنفقها من مال الملك فردها الله إليه مضاعفة إذا سار الإصلاح في التفتيش بسرعة مدهشة وزادت خيراته وبركاته زيادة طيبة

« وحدث أن شح ماء النيل في سنة ١٩٣١ وخشى الناس أن لا يتمكنوا من إطفاء الشراقي لزراعة الذرة والذرة كما هو معلوم غذاء الفلاح فأققت هذه الحالة الملك فؤاداً وشغلت باله وخصوصاً فيما يتعلق بمديرية البحيرة فان رياح البحيرة ليس من الكفاءة بدرجة تجعل الري في البحيرة مطمئناً وتزداد حالته سوءاً إذا شح ماء النيل ولم يغذ التغذية الكافية من القناطر الخيرية فيجب في هذه الحالة تغذيته من ماء « بركة النيل » في فرع رشيد

« فما كان من جلالاته ألا أن أمرني بأن أبلغ رئيس الحكومة — وكان إذ ذاك دولة اسماعيل صدقي باشا — هذا الاهتمام من جانبه بالحالة مع رجائه ببذل أقصى جهد لكي يتم ري الشراقي في جميع المديریات على أحسن حال وفي أسرع وقت مستطاع وخصوصاً في مديرية البحيرة

« واهتم دولة صدقي باشا بالموضوع اهتماماً كبيراً وترأس اجتماعاً من كبار رجال الري فكان من رأي بعضهم أن إطفاء الشراقي ممكن ومتيسر ولكنه يخشى إذا أخذ الماء بكمية كبيرة من بركة النيل في فرع رشيد أن يؤثر ذلك في طلبات ري أدينا القائمة على النيل وقد تموت زراعة هذا التفتيش عطشاً . . .

« فلما رفع ذلك إلى مسامع الملك فؤاد قال بغير تردد : لمت زراعة ادينا

إذا كان في ذلك مصلحة لأهل البحيرة بإطفاء شراقيهم في الميعاد المناسب

« وأمر صدقي بإشارة رجال الري بإدارة طلمبات العطف وتغذية ترعة المحمودية تغذية كافية لري الشراقي في البحيرة فتم الري على أحسن حال وزال الخطر عن الزراع » ولحسن الحظ لم تقف طلمبات أدفينا على رغم من هبوط منسوب بركة النيل إلى ما تحت ٤٠ سنتيمتراً وسامت زراعتها ولم يضع على الملك شيء كما كان بعض رجال الري يخشى

« ومما أسف له أشد أسف أنني لم أسلم — ولم يسلم الملك — من بعض السنة السوء فقد زعم أجنبي أنني أخذ الماء لأرض الملك وأحرم منها الجيران وشكا من ذلك بل ذهب إلى كتابة مقالات في إحدى الجرائد الأجنبية فرأيت أن لا أقف مكتوف اليدين إزاء هذه الفرية الباطلة ولا سيما أنني أنفقت بيدي ما يزيد على خمسة وأربعين ألف جنيه من مال الملك لا لخدمته وحده بل رافة بجيرانه كذلك وبرا بهم

« وكان الرجل قد رفع دعوى على وزارة الأشغال يطالبها بتعويض بحجة أنها حابت الخاصة الملكية فدخلت خصماً ثالثاً في الدعوى وطالبت بتعويض قدره ١٠١ جنيه وبسطت الحقائق المتقدمة المحكمة المختلطة وقد نظرت الدعوى في أثناء غيابي في بروكسل فعينت المحكمة ثلاثة خبراء أحدهم بريطاني والثاني إيطالي والثالث مصري فقدموا لها تقريراً أثبتوا فيه أن الخاصة الملكية عملت هذا العمل في حدود القانون واللوائح وأنها إذا كانت قد أفادت نفسها فقد أفادت الجيران كذلك ومنهم المشتكي

« وزاد الخبراء الثلاثة على ذلك في تقريرهم قولهم إنه لا يسعهم إزاء العمل الزراعي والإنساني والاجتماعي الجليل الذي عمله الملك فؤاد في هذا التفتيش إلا أن يشيدوا بذكوره

« وحكمت المحكمة برفض دعوى المدعي وألزمته بمئة جنيه تعويضاً لي عما

افتراه كما حكمت عليه بالف جنيه اتعاباً للخبراء وثلاث مئة جنيه اتعاب محاماة ونشر الحكم في جرائد عربية وفرنسية

« وكان المدعي أول من يعلم افتراءه على الحق وجرائته عليه فلم يستأنف الحكم وقبله فيما يتعلق بالخاصة ونفذه

« وكان هذا آخر ما درى به الملك الراحل الكريم قبل أن يلقي ربه عن عمل ناظر خاصته »

وختم الإبراشي باشا حديثه بقوله :
« وقبل أن أختتم حديثي معك أذكر لك ما حدث بيني وبين الملك الراحل قبل أن أبدأ عملي في خاصته الملكية
« قلت لجلالته : أرجو يا مولاي أن تبين لي المبادئ التي يجب عليّ أن أسير عليها في إدارة خاصتك

« فقال لي رحمه الله : إنها بسيطة جداً . لقد اخترتك ناظراً لخاصتي وقد كنت من رجال القضاء وكان ناظر الخاصة الذي قبلك من رجال القضاء وكان ناظر الخاصة قبله من رجال القضاء وكان ناظر الخاصة الذي قبله من رجال القضاء كذلك فاختياري لناظر خاصتي من رجال القضاء دائماً يرجع إلى سبب واحد وهو أنني أريد إذا تكلم معي أي إنسان عن ناظر خاصتي وقال لي أنه فعل كذا مما لا يصح فعله أستطيع أن أرد عليه في الحال قائلاً لا أعتقد أن هذا حدث فإن ناظر خاصتي من رجال القضاء فلا يمكن أن ترتاح ذمته إلى عمل كهذا

قلت لجلالته : كفاني هذا يا مولاي وسيكون ذلك رائدي في خدمتك .
ويعلم الله أنني ما حدثت عن هذا المبدأ طول مدة خدمتي له ويقيني أنه غادر هذه الدار القانية وهو عني راض »

قدوة لنا في التنويه بفضل الصناعة المصرية وتوجيه النظر إلى أن ما يخرج من
الصناع المصريين الحاذقون يصلح لأن يهدى إلى الملوك وأن تزدان به
قصور العظماء.

وفي عهد جلالته رفعت مصلحة الصناعة والتجارة إلى وزارة قائمة بذاتها